مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459
Algerian Scientific Journal Platform
المجلد: 08، العدد: 01 (2023) ص 83 - 94

الهوية والتمثيل الكولونيالي في رواية أربعون عاما في انتظار إيزابيل

L'identité et la représentation du colonialiste dans le roman for Isabel

نسيمة حمود*
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02، الجزائر
nassimahamoud96@gmail.com

معلومات المقال
تاريخ الإرسال: 2022/04/21
تاريخ القبول: 2022/11/20
تاريخ النشر: 2023/03/26
الكلمات المفتاحية:
✓ الهوية / الخطاب
✓ التمثيل الثقافي
✓ الاستشراق
✓ الشرق/ الغرب
✓ إدوارد سعيد

الملخص:
عملت المؤسسة الثقافية الإمبريالية، الاستشراقية منها والسردية، المدعومةبفعالية الخطاب، وتأثير قوة إواليات التمثيل، على إحلال براديغمات معرفية مست في العمق هوية المستعمَر / الشرق، ومسخته إلى كائن كسول وعاجز، شهواني وشبقي، متخلف ودوني، راسمة بذات الوقت، حدودا فاصلة،إثنية وعرقية، انقسم العالم على إثر منها إلى نموذجين رئيسين؛ النموذج الغربي/ الأمريكي المتحضر وصاحب رسالة الأنوار، يقابله في الاتجاه النقيض، نموذج الشرق المساق عنوة إلى غياهب التخلف والسحر والشعوذة.وكردة فعل منتظرة، تفتق عن الجبهة الشرقية المستعمَرة،خطابات مناوئة لتلك التي سنها ذلك الآخر المستعمِر، انضوت معرفيا تحت لواء الرد بالكتابة، أو المقاومة الثقافية، التي كشفت زيف الصور النمطية،التي سجن الشرقي داخل أسوارها. ومن تلك السرديات المقاومة للتمثيل الكولنيالي، انتخبنا مدونة (أربعون عاما في انتظار إيزابيل) لصاحبها (سعيد خطيبي)، الذي عمد عبر صفحات عمله ذاك، على تفكيك الرؤية الاستعمارية المنحازة، والمخترقة بذاتيتها، لتكون أنموذج هذه الدراسة.

Article info
Received 21/04/2022
Accepted 20/11/2022
Keywords
✓ *Identity / Speech*
✓ *Cultural representation*
✓ *Revelation*

Abstract :
The Imperial Cultural Foundation, whose orientalism and narrative, supported by the effectiveness of discourse, and the influence of the power of the mechanisms of representation, has replaced the deep-rooted cognitive pradigrams of the Colonist/Eastern identity, and tainted it in a lazy and helpless state, paranoid and ghostly, retrograde and inferior, at the same time dividing ethnic and racial boundaries, the world being divided into two main patterns. The Western/American civilized model, with the message of lights, is equaled in the opposite direction by the Eastern model, which is forced in the absence of delay, magic and witchcraft. While awaiting her reaction, she broke with the Eastern Colonial Front, letters hostile to those of this other colonizer, a cognitive resonance in writing, or a cultural resistance, which exposed the false stereotypes, which imprisoned the Oriental in its walls. One of these anecdotal accounts of cholinaic representation, we elected Isabel's blog of its owner, Saeed Khatibi, who, through the pages of his work, dismantled the colonial vision that was biased, and penetrated,

*نسيمة حمود

to model this study.	✓ *East/west* ✓ *Edward said.*

1.مقدمة

يجب أن لم يعد سريان مفهوم الهوية كمعطى بيولوجي قبلي خامل،نولد حاملين له، عملة قابلة للصرف والتداول في سوق الدراسات الفكرية والنقدية الحديثة والمعاصرة، التي فارقت هذا الطرح الكلاسيكي، لتنخرط في المسعى الفكري الذي يرقب موضوعة الهوية بعين الصناعة والحرفة _ إذا ما استعرنا مقولات النقد العربي القديم _؛ أين تتعين الهوية إذ ذاك، بوصفها تشكيلات خطابية، ووقائع سردية، وصناعة ثقافية، غير قارة، ذات سمة ظرفية وسياسية، مندغمة بصورة غير متناهية في عمليات السيرورة والصيرورة التاريخية والثقافية، تحيك خيوطهاالجدلى، ماكينة خطاب الآخر / المركز / الصانع،حول نفسه، ولا تتوقف، لتمتد أدرعها الطولى لتطوق خاصرة الأنا / التابع / الأطراف،معلنة بروح من الاستعلاء والتفوق العرقي، والتقدم والتحضر العلمي، تجاسرها في سبيل ابتداع متوازيات نصية، شغلت منصب الحقائق والماهيات المطلقة،كان من عقابيلها؛ أن لم يُبدّل هذين الغريمين التقليديين على هدي من تلك الخطابات والأساريد، جلدا غير جلدهما فحسب، بل أفضت تلك الصناعة الخطابية، بالتوازي،والتي خلقت تقسيما هوياتيا مانويا بمصطلح **فرانز فانون**، صراعا خطابيا، في أقله، بين الآخر / الغرب، والأنا / الشرق، احتضنته وشهدت عليه، دفات عديد من المؤلفات الفكرية، النقدية، والجمالية الأدبيةالسجالية.

يتردد صدى هذا الطرح في المنجز المعرفي الذي شيّده المفكر،**إدوارد سعيد**(1935 _2003م)، المتحزب معرفيا جهة الدراسات ما بعد الكولونيالية، رغم رفضه المطلق للتصنيفات والألقاب، والمتحرك بعدة مفاهيمية متكثّرة الرؤوس، انفتحت على مرجعيات معرفية، فلسفية وفكرية هجينة، صوب تفكيك بنيةالخطابات الإمبريالية الغربية، إزاء الأوروبيين، وبقية العالم، مكنته من الإحاطة بمناطق الصمت، التي طوقت النصوص الغربية، وكشف أجنداتها الخفية،واستخلاص المضمرات النصية، السياسية والسلطوية، المتوارية خلف الجمالي والمعرفي، التي تحسسنا زفيرها منذ كتابه (**الاستشراق، 1978**)، ثم عمله اللاحق (**الثقافة والإمبريالية، 1993**).

يجادل **إدوارد سعيد**، بشأن العلاقة العضوية، التي جمعت بين، الاستشراق بوصفه مؤسسة علمية غربية، ترنو إلى حيازة معرفة مخصوصة، عن الشرق والشرقيين، وبين المد الاستعماري الغربي، الذي اجتاح ما يقارب أل(80٪) من الأراضي العالمثالثية، خلال القرنين الثامن والتاسع عشرة، والنصف الأول من القرن العشرين؛ فالاستشراق وعلى نحو ما يعلمنا سعيد، يتعين بوصفه، إحدى الآليات الناجعة، التي توكز عليها الغرب الإمبريالي لإخضاع الشرق / موضوع المعرفة، لسيطرته العسكرية، التي كانت في خطوة استباقية، سيطرة خطابية ومعرفية، وصفها بالمنحازة والمؤدلجة والمسيسة، حينما أقدمت على تقزيم الشرق الحقيقي، المتعدد والمختلف، بأبعاده الأنطولوجية، والجغرافية والتاريخية والثقافية، ومسخته إلى كتلة خطابية / نصية، كي **تعيد تشكيله**، أو **إنشاءه**(والمصطلح لإدوارد سعيد)، ضمن أوصاف عرقية تنميطية، لا تخرج عن دائرة، الدوني والمتخلف، والشبقي والجنسي، والشاذ والمنحرف، والكسول، وكما يضيف سعيد إعادة تشكيله،« **سياسيا واجتماعيا وعسكريا وتخييليا**» (سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، تر، كمال أبو ديب، 1991، صفحة 14) وعلى الطرف النقيض، نلفي تلك السردية الاستشراقية، تؤسس لما سمي، **بميثولوجيا الرجل الأبيض** / المستعمِر، مَجَلى الحضارة والتقدم، الحامل لرسالة التنوير، وعبر هذه السردية المعرفية الموجهة والمغرضة، التي راحت تصور الشرق، على نحو، وكأنه يشرأبّ برقابه، ويتضرع، إلى ذلك الآخر

الغربي، لانتشاله من غياهب التخلف والجهل القابع فيها، تغدو عملية استعمار الرجل الأبيض لأراضي الأصلانيين، أمرا طبيعيا، بل ومحتوما، وضمن هذا المسرد، الذي تتضايف فيه المعرفة الاستشراقية، مع السلطة الاستعمارية، تقوّم الاستشراق في الفهم الإدواردي، بوصفه تلك « **المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق، والتعامل معه معناه التحدث عنه، واعتماد آراء معينة، ووصفه، وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه: وباختصار[يضيف سعيد]، بصفة الاستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه** » (سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، 2006، الصفحات 45-46). لتكون الصيغة النهائية، لذلك التعامل والتسوية، ولتلك السيطرة والهيمنة، وإعادة البناء، **شرق مشرقن**، بعبارة إدوارد سعيد الأثيرة، مشكل خطابيا في مصانع المعرفة الاستشراقية، كمقدمة ضرورية، تعبد الطريق نحو غزوه وامتلاكه عسكريا، من أجل استنزاف ثرواته.

يستعين إدوارد سعيد، في مسعاه هذا، للإطاحة بالمتعالي الاستشراقي، وكشف تنميطاته العرقية، فضلا عن تورطه في الشرط الإمبريالي، والذي مكنه من قلقلة الفكر الغربي، ورج أركانه الصلدة، في عمله (الاستشراق)، بمقولات المنظر الفرنسي، **ميشال فوكو** (1926 _ 1984م)، حول الخطاب، كأرض خصبة لاستزراع المعاني، وتأبيدها، وبلغة فوكو، فإن الخطاب هو ما « **يبني ويحدد وينتج مواضيع المعرفة بطريقة واضحة** » (باكر، 2018، صفحة 158)، غير أن المعرفة، وكما يزودنا الحس الفوكاوي، غير بريئة؛ فهي مورطة وبشكل مستمر في أفعال السلطة، المدعومة هي الأخرى بالشرعية المعرفية، في تنفيذ مخططاتها وأجنداتها، لينتهي فوكو إلى القول؛ بأن المعرفة والسلطة، وجهان لعملة واحدة، لا يفترقان، تغطي الواحدة منهما مجال الأخرى، وفقا لهذا الجدل الثابت : « **السلطة والمعرفة تقتضي إحداهما الأخرى، وأنه لا توجد علاقة سلطة من دون تأسيس مناسب لحقل معرفة، وأنه لا توجد معرفة لا تفترض ولا تقيم بذات الوقت علاقة سلطة** » (فوكو، 1990، صفحة 65) ؛ فالمعرفة التي اعتقدنا، دوما، بموضوعيتهاوحياديتها، مدموغة، وعلى غفلة منا، بدمغ السلطة وإكراهاتها، ولا تتنفس إلا عبر قنواتها المبثوثة في المجتمع، على تشكيلات عدة، وضمن هذا التمشي، راح إ. **سعيد**، يشدد على **الميزة الخطابية للاستشراق**، بالمعنى الذي يمنحه **ميشال فوكو**، لمفهوم الخطاب، بوصفه إنشاءً، وإعادة إنتاج؛ « **فعن عن طريق " الخطاب "، الناجم عن تحويل الشرق إلى " نصوص " من أجل " تكريسها "، استعمر الغرب الشرق، فهدف الاستعمار لم ينحصر في السيطرة على " عالم الواقع " فقط، بل على " عالم الخطاب " أيضا.** » (الوليد ي.، 2010، صفحة 50) ، ما يعني من وجهة نظر أخرى، أن الاستشراق ينطوي « **"على وجود نظري وعملي". وهو ليس مجرد نسق معرفة فقط ، [.....] إنه تدخل وإعادة توزيع ورسم للحدود، ومن ثم فهو " أسلوب " للهيمنة والسيطرة وإعادة البنينة.** » (الوليد ي.، 2010، صفحة 49)، على مقاس الغرب طبعا، وبما يخدم رؤاه ومصالحة الإمبريالية؛ ليكون الاستشراق، فعلا **رسالة استعمار**، كما عنون أحدهم مؤلفه.

يمضي **إدوارد سعيد**، باستقصاءاته العميقة، في مساعيه الرامية إلى بَنْيَنَةِ النصوص الغربية، ضمن سياقاتها الثقافية والتاريخية والسياسية، بما يكفل له الوقوف على ممكناتها المخبوءة، وراء النصية الحرفية، في عمله اللاحق (**الثقافة والإمبريالية، 1993م**)، والذي خصه لاستظهار، التلاحم القوي، الذي جمع الثقافة الغربية، ممثلة هاهنا، بالرواية، كأحد أهم الأشكال الثقافية، وبين الإمبريالية الغربية، والتي تعني، والقول لصاحب الثقافة والإمبريالية : « **الممارسة، والنظرية، ووجهات النظر التي يملكها مركز حواضري، مسيطر يحكم بقعة من الأرض قصية [.....] فهي ببساطة العملية أو السياسة اللتان بهما يتم تأسيس الإمبراطورية أو إدامتها والحفاظ عليها**» (سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر، كمال أبو ديب، 2014، صفحة 80) ، ولا يشك سعيد لحظة؛ أن الفن الروائي، كان أحد أهم الأشكال الثقافية، التي تسربت مفاعيلها، لتهيئة السياقات المرافقة

لعمليات غزو وسيطرة المركز، على الهوامش والأطراف، والاصطفاف مع مساعيه الامبريالية، وتأمين إدامة الإمبراطوريات الاستعمارية، وتأبيدها، حينما دأبت على تقديم « **صورة لعالم مركزه الغرب المميز اجتماعيا وسياسيا وثقافيا، وعلى الأطراف منهسلسلة من الأراضي ما وراء البحار. ولقد واكبت الرواية هذا المد الإمبريالي، وشخصت ملامحه المختلفة دون أن تتجرأ على طرح الأسئلة المقلقة بصدده، أو إثارة الانتباه إليها بشكل أو بآخر، وإنما كانت تتبنى وجهة النظر الاستعمارية التي تحفز على استدامة السيطرة وعدم التفريط فيها.** » (الخضراوي، الرواية العربية، وأسئلة ما بعد الإستعمار، 2012، صفحة 87)

هل يجوز لنا، بعدئذ، القول؛ أن « **"عنف " أو " اغتصاب التمثيل "** » (الوليد ي.، 2010، صفحة 55)، هو ظلّ للثقافة التي أوجدته، كأحد حراسها المخلصين، على خزائن سياسات المعنى و خرائطه، وفق المنظور، الذي لا يجعلهما يفارقان، الانخراط وبشكل جد متشابك، مع هذه الإحداثيات الثلاث؛ **السياسة / السلطة / الخطاب**، والمتعينة، كأخطبوط، متحكم في صوغ وجهات النظر، والمهيمن على طرائق تعقلنا للعالم، بطريقة مؤسسة، ومنظمة، ما يعني؛ أن عملية تمثيل العالم أو الآخر بل وحتى الذات، لا تعود مهمة فيها، أن تتطابق، الدوال مع المدلولات، والعلامات مع تمثيلاتها، أو أن تتماثل الحقائق النصية، مع ماهيتها، الكائنة هناك في الواقع المادي؛ فالمعرفة التمثيلية وعلى نحو، ما يصفها، **إدغار موران**، هي معرفة « **اختزالية، لأنها تحجب عن الرؤية صورا أخرى للواقع نرفضها أو تتعارض مع المضمون الذي نتغيا تنزيله إلى فضاء التداول** » (الخضراوي، الرواية العربية، وأسئلة ما بعد الإستعمار، 2012، صفحة 57) ، وعمليات الحجب، والاستظهار تلك، تقع في القلب النابض لسياسات التمثيل؛ ذلك أن أحد أهم الأدوار المنوطة بعمليات التمثيل؛ هي أن تسمح بتجلّ وانكشاف مقولات، تنتج وتتداول على أنها حقائق مطلقة في فضاء التداول، وتغيّب، وتقصي أخرى، لا تتماشى مع طبيعة رؤيتها للعالم، ولا تطابق منطق تفكيرها، وتعارض مصالحها العليا، وهنا يتجلى **عنف / اغتصاب التمثيل**، كتشويه مقصود، عن سبق إصرار وترصد، للحقائق والممارسات، واختزال منمِّط للأمم، والكينونات، وتزييف للتاريخ والأحداث. وهذا النوع من التمثيل، أو الممارسات في تشويه الحقائق، يقع في الأساس من الاستراتيجية التي يتبعها الغرب الإمبريالي في تمثيله / صناعته لهوية الشرق، والمجتمعات الكولونيالية، وللذات كذلك؛ « **استنادا إلى آلية مزدوجة الفعالية. ففيما يخص الذات أنتج التمثيل ذاتا نقية وحيوية، فضخ مجموعة من المعاني الأخلاقية على كل الأفعال الخاصة بها، وفيما يخص " الآخر " أنتج التمثيل آخر يشوبه التوتر والالتباس والانفعال أحيانا، والخمول والكسل أحيانا أخرى. وذهب فيما يخص ذلك إلى تحميل الآخر بقيم تُرتّبُ تدريجيا، ليكون في تعارض مع الذات** » (الخضراوي، الرواية العربية، وأسئلة ما بعد الإستعمار، 2012، صفحة 58) .

يضع**إسعيد**أصبعه، بعد أن أسهب في قسم أول من (الثقافة والإمبريالية)، في مساءلة نصوص غربية إمبريالية ملغمة، أمضت على سجل حضورها في العالم الثقافي، باسم نتاجات روائية عظام، ـ قلت يضع أصبعه ـ ، على سليلتها الشرقية والعالمثالثية التي كانت رجعا، وصدى للصوت الروائي الغربي، المتحرك بمهماز الرجل الأبيض، إلى حشر بقية العالم، اللاأوروبي، في زمرة العاجزين، والصامتين، والكسالى، والمتخلفين، وآكلي لحوم البشر، غير القادرين على تمثيل أنفسهم، ووضعهم بمصطلحات **جاك دريدا** التفكيكية، **تحت المحو/ الكشط** ، لتدبر أمورهم، والسيطرة عليهم، وتوجيههم إلى الوجهة التي يريدها لهم مستعمرهم، وضمن شرطية كتلك التي جمعت الغرب والشرق، المؤثثة بروح السلطة والهيمنة، وغريزة حب التملك والإخضاع، انتفض مثقفو الشعوب المستعمَرة، وكتاب ما بعد الكولونيالية، حاملين « **ماضيهم في أعماقهم ـ ندوبا لجروح مذلة، وتحريضا على < خلق > ممارسات مختلفة** » (سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر، كمال أبو ديب، 2014، صفحة 270) من أجل تأميم صكوك التمثيل خاصتهم، التي استحوذ عليها السرد الإمبراطوري

في فترة سابقة، متوسلين بالممارسة الثقافية الخطابية والسردية المضادة، التي أرادوها أن تكون قالبة للأدوار والمراكز، ومفككة لتلك، « **الصور النمطية المتحيزة أيديولوجيا للمركزية الغربية، منطلقة من الوعي بأهمية امتلاك سلطة " الكلمة " و " الصوت " في تمثيل الذات**» (بوعزة، سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، 2014، صفحة 51) .

تستشكل رواية (**أربعون عاما في انتظار إيزابيل**) لصاحبها (**سعيد خطيبي**)،واقعة التمثيل الاستشراقي التي انغمس فيها الآخر الكولونيالي،من أجل تثبيت آخريه في غيرية دائمة، يُرسِّم عبرها هويته الفوقية المتعالية، وكذا الهوية الصنمية الدونية المكبلةلأغياره في ظرفية جامدة،والمنعكسة حصرا في مرآة مصالحه وتوسعاته الإمبريالية، والتي لا تتطابق في أحايين كثيرة مع المعطى المادي والواقع التجريبي لكلاهما، ليرمي خطيبي من جانبه، حجرة في بركة تصورات الكولون الفرنسي للمستعمَر الجزائري، متوسلا نشاط السرد المضاد، أو الرد بالكتابة، على تلك التمثلات التي اكتنزتها في عمله، أعلاه، شخصية (**جوزيف رينشار**)السبعيني الفرنسي الذي شارك في ثورة التحرير الجزائرية، والمشكك جماهيريا في أمر ولائه وانتمائه الروحي للثقافة والتقاليد الجزائرية، بمعية من مواطناه، المستشرق، والرسام (**ايتيان دينيه**)، و(**إيزابيل إيبرهارت**) التي لم يحسم أمر الخلاف، بين كونها عميلة استخباراتية فرنسية، وبين كونها أحد المدافعين الحقوقيين، الرافضين للممارسات الفرنسية اللاإنسانية في حق الشعب الجزائري، تلك الأحداث الروائية التي احتضنتها تخييليا مدينة،(**بوسعادة**) **الجزائرية**، التي كانت مسرحا لأحداثها ولعب أدوارها، وهي تؤرخلفترة حساسة من تاريخ الجزائر الحديث، عقب تحقيق الاستقلال الوطني، ورهانات التنمية،وبناء الدولة الجزائرية الحديثة، وما رافقها من تحديات، ومنعطفات حاسمة، تخضّبت بلون الدم الأحمر، في عشرية دموية وصفت بالسوداء في التاريخ الجزائري. وعودا على بدء؛ فإن هذه الورقة البحثية تولي جهدها من أجل تطويق الاستشكالات التالية: **كيف تمثل الآخر الفرنسي الأنا الجزائرية؟ وكيف انعكست هوية الجزائري في مرآة الفرنسي؟ وما مدى مصداقيتها ودقتها في مطابقتها للواقع؟ كيف تعامل سعيد خطيبي مع تلك التمثيلات في نصه، عينة الدراسة؟ هل أمكن له تحرير الذات الجزائرية من إسار النصوص الاستشراقية والرؤية الكولونيالية التي قبرتها في حيز ضيق ينوء عن حمل ماهية الجزائري؟.**

2. تشكلات الذات في مرآة الآخر المحدبة:

يبتدع المركز الحواضري / الغرب،في سبيل الاستحواذ على الأطراف / الشرق، سرديات ثقافية، وخطابات استشراقية، مسنودة بمعارف قبلية،تتوكزأحكاما مبتذلة، وتعانق كليشهات جاهزة، أخرجت الأمور عن جادتها،وجافت بها، منطق الحقيقة الموضوعية،وجاهرت بها، على أنها الماهية الجوهرية لموضوع معرفتها / آخرها، لتشيّد في كل مرة تراودها نفسها باكتشاف أغيارها الداخلين مجال جاذبيتها الحيوي،**مشروع العود الأبدي / نيتشه**، مصادرةحقها الطبيعي في الاختلاف والتمايز، بعد أن أفضت تلك الممارسات الخطابية / المعرفة، المتسربلةبمحاميل سلطوية، والمستبطنة لرؤيايديولوجية إمبريالية، إلى إفراغ الشرق من محتواه، وجعله، وهو موطنالتعدد والاختلاف، نسخةمكرورةومدورة لإفرازاتأنظمة بنياتها الاستعمارية، وأنساقها المعرفية المتعسفة، التي بدت عاجزة« **على استيعاب موضوعها استيعابا كاملا، فالمجتمعات المستعمَرة تستقر على بطانة متنوعة من الولاءات، كالتحيزات العرقية والتواطؤات الفئوية، والخلفيات التاريخية الخاصة، والعقائد الدينية الراسخة، لا تستطيع المعرفة الاستعمارية الغوص فيها ويتعذر عليها تأويل دلالاتها الرمزية، فكثير منها لا يفهم إلا في السياق الثقافي الحاضن لها** » (إبراهيم، 2014، صفحة 47). يسترجع

خطيبي، من جهته، بعضا من رجع تلك التمثيلاتالكولونيالية، التي حشر فيها المستعمِر الفرنسي، هوية المستعمَر الجزائري، عبر شخوصه الروائية (جوزيف رينشار، ايتيان دينيه، إيزابيل إيبرهارت)، التي تزيت مواقفها بترسباتالرؤية الاستشراقية المتحيزة، وكبلت تصوراتها عن الجزائري / الآخر ، بأصفاد السلطة الفرنسية الاستعمارية المتغطرسة، لتستقر صورة ذلك المختلف في أدراج وعيها، كمتخلف، يغوص في طقوس بدائية، تفصله عن مقطورة التحضر التي يقودها سادته وكبراؤه، الغرب، جلادها باطنا، ومخلصها ومهديها المنتظر علنا.

1.2 الشرق؛ عالم الحريم والساراي، وعرين العادات والطقوس الشاذّة :

ما كان لعرى التجربة الاستعمارية ونصوصها المعرفية، أن تنفصلعن محكي مواطنيها عن أغيارهم، بقوة وهيمنة خطاباتها؛ فهذا (جوزيف رينشار) بعد أن شارك في حرب التحرير الجزائرية،وبعد أن لبث في مدينة (بوسعادة)، وعاش بين ظهرانيها، في كنف أهلها، معاشرا تقاليدها وعاداتها، ومطلعا على دقائق أمورها، أربعين عاما أو يزيد، إلا أنه لم يستطع خلع جبة الاستشراق عنه، وعجز عن إصدار أحكامه بعيدا عن دوائره الخطابية، أين يتعين الآخر / الجزائري في مخياله،كمرتع لعديد من العادات الغريبة والشاذة، التي تشكل في مجملها هويته، وتجري به بعيدا عن مسارات تشكل وانبناء هويته الفرنسية، التي قادته إلى مصادرة « **خاصية عربية تعلمتها ولم أغفل عنها [يصرح جوزيف]، الناس لا يتنازلون عن حقهم في التلصص على عادات الجيران السرية، معتبرين الفعلة شيئا طبيعيا، فمن منظورهم، من غير اللائق أن تعيش في حيّ دونما أن تكون على اطلاع بما يحصل خلف حيطانه** » (خطيبي، 2016، الصفحات 23-24) فهو من علياء قمقمه الفرنسي، يعلن تعاليه عن هذا المجتمع، ويقر عدم انغماسه في ممارساته اليومية التي تقززه، وتثير حنقه، يضيف جوزيف ذات مناسبة أخرى، « **ألبس برونسا من وبر في الشتاء ولا أبصق أو أقذف مخاطا على الأرض مثلهم.** » (خطيبي، 2016، صفحة 24)ولا يكتفي؛ إذ ينحو إلى تأصيل تلك العادات الشاذّة وتجديرها في الماضي البعيد، وعدها ملمحا تاريخيا قارا، ناظما لهيكل هوية الأصلاني وسلوكياته اليومية، التي تجافي إيتيكيتات وممارسات الغرب / فرنسا الدالة على تحضره ورقيه الأخلاقي، المتزامن مع تقدمه المسجل في جميع المجالات والأصعدة، وعليه، راح جوزيف السبعيني يستجدي ذاكرته العجوز، أين عادت به إلى الوراء، لتنتخب مرة أخرى، ممارسة مخزية تحسب على آخره، وتكيل له الخزي، وتضمر مواقف تحقيرية للجزائري / الشرقي؛ « **حين وصلت إلى هذا البيت الذي أسكنه، لم يكن المسجد موجودا، كانت تنبسط مكانه رحبة واسعة، يستغلها باعة المواشي، القادمين من القرى القريبة، يومي الأحد والأربعاء، لعرض بضاعتهم، وترك فضلات غنمهم خلفهم.** » (خطيبي، 2016، صفحة 20) وضمن هذا التمشي، الذي فرضته الرؤية الاستشراقية، يستحيل الجزائري / الشرقي، بصفاته الغريبةتلك، وموضوعاته المقتنصة بدقة متناهية،والتي تواضعت النصوص والخطابات الإمبريالية على تداولها، وتصنيفها في خانة المعرفة بالشرق والشرقيين، إلى آخر الغرب، ونسختهالمشوهة والمعيبة، وها هنا ترسّم هوية الشرق والغرب معا، على أن تلصق بالأول صفات التخلف، والعادات الغريبة والشاذّة، في حين يشرّف الثاني بحمل راية التقدم والتحضر،« **فعملية البناء السلبية لآخرين لا أوروبيين هي التي تقوم، آخر المطاف، بتأسيس الهوية الأوروبية نفسها وإدامتها.تعمل الهوية الكولونيالية، قبل كل شيء، عن طريق منطق ثنوي (مانوي) قائم على الإقصاء أو الاستبعاد. وكما يقول فرانز فانون فإن " العالم الكولونيالي عالم ممزق إلى اثنين ". يجري إقصاء المستعمَرين (بفتح الميم) عن الفضاءات الأوروبية، ليس فقط على الأصعدة المادية والإقليمية، وليس فقط من حيث الحقوق والامتيازات، بل وحتى على مستويات الفكر والقيم، يجري بناء الذات المستعمَرة (بفتح الميم) في خيال المركز بوصفها**

آخر، وبالتالي فإن المستعمَر يجري إبعاده، قدر الإمكان عن الأسس المحددة للقيم الأوروبية المتحضرة » (أنطونيو، 2002، الصفحات 193-194)

الشرق الأنثوي الشهواني، مرتع الملذات والمتع الجنسية، أين تفتح المرأة الشرقية فخذيها للقاصي والداني، هو الثقب الأسود الآخر الذي ابتلع الشرق الحقيقي، لينبعث محله الشرق المشرقن بعبارة سعيد،المتناقل والمتوارث في أدبيات المستشرقين والرحالة الغربيين ونصوصهم، التي وصفت « **الشرق بأنه أنثوي، وكثيرا ما وصفت ثرواته بأنها خصبة، وكثيرا ما وصفت رموزه الأساسية بأنها المرأة الشبقية، والحريم، والحاكم المستبد إنما المثير للإعجاب.وعلاوة على ذلك، فقد أُلزم الشرقيون، الصمت والإنتاج الوافر بلا حدود، شأنهم في ذلك شأن ربات البيوت** (سعيد،، 2007، الصفحات 50-51) ». وعلى شاكلتها، صور (إيتيان دينيه) قبيلة " أولاد نايل " «**رجالها كقوادين ونساءها عاهرات**» (خطيبي، 2016، صفحة 46)، بل راح يتمادى في تأنيث الشرق، وتطويقه بخطاب جنوسي؛ « **فقد كان لا يكتب سوى لغرض واحد: هو تحريك شهوة الفرنسي الكسول، المكبوت والعاجز عن الانتصاب أو القذف، يصور له جنوب البحر المتوسط على أنه ماخور كبير، أبوابه مفتوحة للقاصي والداني، والنسوة فيه يرقصن بغنج ويلحسن الأيور بحبّ وسخاء.** » (خطيبي، 2016، صفحة 46).

وإذا كان (إيتيان دينيه) قد صور قبيلة " أولاد نايل " كمواخير وملاهي كبيرة، تفوح منها رائحة الجنسوالشبق، وكمكان للعربدة والتفسخ الأخلاقي، في رواياته المسكونة بروح النصوص الاستشراقية" **خضرة، راقصة أولاد نايل** "؛ فإن (إيزابيلاإيبرهارت) هي الأخرى قد اقتفت أثره في قصتها " **نوار اللّوز** "، التي « **حكت فيها عن السعدية السّمراء وحبيبة البيضاء، اللتين قضيتا ثلاثين عاما في مواعدة العشاق والانتقام منهم، وفي الانتقال من سرير إلى آخر، حتى قيل أنهن ضاجعن رجال المدينة كلهم، بما في ذلك المجانين والمؤمنين الخانعين جدا لله، تمرغنّ في الأجساد الذكورية، حتى كرهن الرجال.** » (خطيبي، 2016، صفحة 51)، فالمرأة العربية / أولاد نايل، لا تحضر في نصوص الآخر الاستشراقية والأدبية، إلا بعدها موضوعا جنسيا ورغبويا، تسقط عنها سهوا أو عمدا كل الصفات الإنسانية الأخرى، لتبقى أسيرة النظرة الاستشراقية الشبقية المستوحاة من عوالم ألف ليلة وليلة، التي سوقت مقولة المرأة العربية المبذولة والمعطاءة، والأرض المستباحة، والراغبة بقوة في جسد الآخر ، « **وهكذا فمنذ بداية العهد الاستعماري حتى نهايته (وما بعده) ترمز الأجساد الأنثوية إلى الأرض المفتوحة.** » (لومبا،، 2007، صفحة 158)، ولهذه المقولات والنصوص الإمبرياليةالتعبوية، رمزينها ومقاصدها، ذلك أن« **الوعد بالمتعة الجنسية عند معظم الرحالة الأوروبيين والمستعمرين انبنى على الاعتقاد القائل إن الأعراق الملونة أو اللاأوروبيين هم بلا أخلاق، وشهوانيين، ويرغبون في ممارسة الجنس بصورة غير شرعية، وهم دوما يشتهون البيض.** » (لومبا،، 2007، صفحة 163).

وضمن هذا الإطار، الذي يحيل إلى معطيات لا يقبل فيها السرد، إلا بوظيفة إعادة تشكيل العالم، وإنتاج الحقيقة، وتحبيك التاريخ، وسردنة الهوية، مسنودا بقوة التمثيل التخييلية، التي تتجاوز أسوار النص، وتغادره، صوب فضاء الخلق والتشكيل الدُّنيويِّيْن، تتبدى شفافية الطرح القائل؛ أن،« **العالم ما هو سوى نص مكتوب تتأسس قواعده على منظومة من العلامات تتطابق فيها الكلمة والصورة معا** » (الخضراوي، السرد موضوعا للدراسات الثقافية، 2014، صفحة 11) ، أين نقفبجلاء على ذلك « **التلاحم بين التاريخ والسرديات، والتكوين الاستيهامي الخالص للمجتمع المتخيل، [.....]، وتشابك المخيلة بالتاريخ، والواقع بالسحر، بل انتفاء إمكانية تحديد الواقع خارج إطار التخيل، والتاريخ خارج إطار السرد** » (سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر، كمال أبو ديب، 2014، صفحة 16)، وهو ذات السبيل الذي تغيّاه العملين الأدبيين " خضرة، راقصة أولاد نايل

" و" نوار اللوز " المشار إليهما في " أربعون عاما في انتظار إيزابيل "، أين لمسنا طابعهما الاستشراقي، المؤيد للأنساق السلطوية الاستعمارية، ومراميها التوسعية فيما وراء البحار، على الأراضي العالم ثالثية، عندما راحت تؤسس لتمثيلات استهامية، تصور الشرق / أولاد نايل، كآلة للجنس، وكموضوع رغبوي، وماخور لممارسة البغاء، والاستمناء، دون شرط أو قيد، أين نقف على تلك التوأمة الحاصلة ما بين الرواية الغربية والمد الاستعماري، التي كشفت عنها آلة إدوارد سعيد النقدية، الذي أكد في غير موضع، وفي أكثر من مناسبة؛ أن،« **الرواية الغربية كما نعرفها اليوم ما كانت ستوجد في غياب الإمبراطورية؛ وبالفعل فإننا إذا درسنا البواعث التي سببت نشوءها، فسنرى الالتقاء _ البعيد تماما عن أن يكون عرضيا _ بين أنساق السلطة السردية المشكلة للرواية، من جهة، وتشخص عقائدي معقد يتبطن النزوع نحو الإمبريالية، من جهة أخرى.** » (سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر، كمال أبو ديب، 2014، صفحة 138)،ويلح سعيد من ذات المنبر أن، « **الأمم، كما اقترح أحد النقاد، هي ذاتها سرديات ومرويات، وإن القوة على ممارسة السرد، أو على منع سرديات أخرى من أن تتكون وتبزغ لكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة وللإمبريالية**» (سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر، كمال أبو ديب، 2014، صفحة 58).

2.2 عجائبية المكان / أو شرق الصحراء، والصمت:

لا ينفصل شذوذ طباع الشرقيين، عن شذوذية المكان الذي يحتويهموغرائبيته؛فلقد تواتر حضور الشرق في المتونالاستشراقية، كصحراء قاحلة، أو مكان مقفر فارغ، ولضروراتها المعرفية؛ تتوقف **(نورة فرج)** في عملها **(ارتباكات الهوية)** عند رمزية ودلالة حضور الشرق كمعادل موضوعي للصحراء، في المتن الاستشراقي، والتي تختلف برأيها من مستشرق إلى آخر ؛ « **فبروتون في كتابه " حكاية حج إلى المدينة ومكة " [....] كان يرى في الصحراء أرض المغامرات التي تتيح له أن يستعرض ذاته في تخطي العقبات التي تعرض له. وفي لوحة جان ليون جيروم " العربي مع جواده " [....] نقرأ فكرة الضياع المطلق، فالصحراء تمتد على مساحة اللوحة دون تفاصيل، فيما العربي الحزين يحتضن رأس جواده في طرف اللوحة، فالعربي هامشي لكنه موجود، برفقة حيوان حميم وميت، إنها صورة الضياع الكلي في تيه الصحراء حيث الوجود الإنساني هامشي في فضاء الصحراء الخاوي. وشارلز م. داوتي [...] في كتابه " رحلات في الصحراء العربية" [...] كان يرى في الصحراء العربية الحياة ذاتها التي عاشها أسلاف البدو كما روت التوراة. أما لويزا جيب [....] فقد كانت تلح في صحرائها على فكرة الانعتاق من حالة الزمنية التي قننتها الآلة في المجتمع الحديث** » (فرج، 2007، الصفحات 75-76). ولا تبتعد صورة مدينة بوسعادة في مخيال (جوزيف)، عن تلك الإحداثيات التي عيّنها النص الاستشراقي؛ إذ دائما ما أردف بوسعادة بلفظة الصحراء، أو ما يعادلها من معان، كالصمت والسكون، والرمال، وهلم جرا من مترادفات، تفرغ المدينة من جدواها، لتكون في عرفه، ليست إلا« **حفرة تحمل صفة مدينة** » (خطيبي، 2016، صفحة 17)، وفي دفاعه المستميت عن ملهمته (إيزابيل) التي نذر بقية حياته لقراءة مخطوطها، وترجمته في لوحات فنية، ضد النسوة الأصلانيات، اللواتي جرى على ألسنتهن، موضوع عمالتها لصالح بلدها فرنسا المحتلة، يرد بشيء من التقريع والسخرية؛ « **لكنهن لم يسألن أنفسهن عن ماذا يمكن لها أن تتجسس في صحراء يتسع فيها الرمل والخلاء والصمت والبؤس والقنوط** » (خطيبي، 2016، صفحة 131)، ليربطها في مناسبة أخرى بسمتي الصمت والكسل المتأصلتين في كينونة الشرق وهويته المصنوعة في المرويات الغربية الكبرى ؛ يقول: « **[...] ووجدتني مثلها أغادر صقيع مدينتي الشمالية، وألجأ إلى هذه البقعة المتكاسلة والصامتة** » (خطيبي، 2016، صفحة 24)، ويضيف مؤكدا على صمتها وعجزها؛ « **[...] ثم أدّيت مناسك الحج، رفقة سليمان، في رحلة برية مضنية، من هذه المدينة الترابية البكماء إلى مكة المكرمة، على متن سيارة رونو 4** » (خطيبي،

2016، صفحة 12)،ولا غرابة هنا؛ «**إذ لم يكن الشرق محاور أوروبا، بل " آخر " ها الصامت.** » (سعيد، تعقيبات على الاستشراق، 1996، صفحة 16)، ويعقب (عبد الله العروي) على حالة الصمت والسكون، التي رمى به المستشرقون الشرق، أو الصحراء بمسماهم، بقوله المنطقي، المفكك لطروحات هؤلاء الزاعمين؛ « **فهو عندما [يقصد بول باولز] يسعى جاهدا إلى وصف حالة الصمت المطلق كما يجربه في قلب الصحراء فإنه ينسى أن هذا الصمت لا " يسمعه " إلا من سكن من قبل في نيويورك أو لندن. وإلا فالصحراء ليست صامتة ولا صاخبة بطبيعتها.** » (فرج، 2007، صفحة 76).

وإذا رحنا نتقصى دلالة " الصحراء " و" الصمت "، اللتين عششتا في ركن مكين من تصورات (جوزيف)، ألفيناها مقرونة بمتلازمة الضياع والتشتت، وإحساس عميق بالنفي والاغتراب، وعدم الانتماء إلى المجتمع البوسعادي الجزائري، نظير ممارسات وسلوكيات الأصلاني، الرافضة " للبراني " أو " الأجنبي " المتعين ها هنا في (أربعون عاما في انتظار إيزابيل) في شخص (جوزيف رينشار)؛ فرغم مشاركة الأخير، وتقلده لمهام حساسة في جبهة التحرير، ورغم ما بدله من مال في سبيل استنهاض الدولة الجزائرية عقب الإستقلال الوطني، إلا أنه ظل بنظر المواطن البوسعاديالأصلاني مجرد غريب، ودخيل على مجتمعهم المنكفئ على ذاته،الذي لم يستطع تجاوز أسواره الذوغمائية المسيّجة لهويته الثقافية، بل قد تخرج الأمور عن نصابها، وتحرف الحقائق و « **يرجمونني بتهمة الاستشراق، يبصقون علي، ويتبولون على رسوماتي وعلى اسمي، ويتهمونني بالعمالة والفجور** » (خطيبي، 2016، صفحة 11)، كما خمن جوزيف أنه سيحصل ذات مرة بعد وفاته، لكن الحاصل قبل وفاته، أنه ظل في عيون هؤلاء « **أجنبيا، " روميا "، وليس مسلما كامل الإسلام، ولا مطيعا متما لأركان الدين الخمسة** » (خطيبي، 2016، صفحة 42)، وأمام هذا القبول المشبوب بالرفض، تصور جوزيف الشيخ السبعيني« **الأرض وهي تدور الآن، تُسرع في دورانها،وتطرح الزوائد من البشر،الذين يثقلون حركتها مثلي، خارجها، تتركهم يسبحون في الفضاء اللامتناهي، بلا وجهة، كجثث بلا هوية، تتحرر من الأوزان الإضافية، التي لا فائدة منها، ببصق من يضايقها وجودهم، في درب التبانة الواسع، وتكمل دورانها برشاقة أكبر.** » (خطيبي، 2016، صفحة 45)، وتتركه كقشة تتجاذبها أمواج الرفض، يعاني التشتت والضياع والحيرة، في صحرائها لبوسعايدية.

3.مقارعة المتون الاستشراقية، وتقويض الفضاءات الروائية /أو نحو تشييد انتفاضة التابع الثقافية:

ينتشلنا (سعيد خطيبي) من عوالم التمثيلات، والتخييلات الكولونيالية، ليضعنا عند عتبة نقيضها، ومقوضها؛ عندما راح يفكك أنطولوجيا المتن الاستشراقي الغربي،الذي رمى المجتمعات الشرقية بتهمة المجون والفسوق، والتخلف والتوحش، ونسب إلى نفسه مراتب الرفعة والتقدم والتحضر الرفيعة في سردية أحادية الاتجاه، وسعيد خطيبي إذ يلجأ إلى رج أركان الخطابات الإمبريالية؛ فإنه يشيد، من الجهة الأخرى، قواعد الخطاب المضاد الرافض لتلك التمثيلات الكولونيالية، واضعا قدمه في بارجة السرد المضاد، أو الرد بالكتابة، أو المقاومة الثقافية، التي أتاحت لحوارييها فرصة سرد حكايتها بلسانها لا بلسان مستعمِرها، عبر انتفاضة ثقافية عالم ثالثية شنتها الأطراف على المركز الأوروبي، الذي نازعهم حق تقرير مصيرهم، وكان مانيفستو تلك الانتفاضة؛ أنه « **لا يمكن الرد على " الذبح الأبيض " ، الذي لا يفارق " العنصرية المشفرة " التي يتم التلويح بأنها " ظاهرة طبيعية وإن كانت مثيرة للغضب "، إلا من خلال " الأدب " ذاته وعبر " النزعة الإنسانية " التي تسعى إلى " تحرير اللغة " من " الشفرات العرقية " التي تقع في أساس تشكل " النصوص السردية "** » (الوليد ي.، 2010، صفحة 103)، فما أخذ بقوة الخطاب وعنفه، لا يسترد إلا بقوة الخطاب.

في سبيله، إلى التموضع خارج النسق الغربي الإمبريالي، و سعيا منه إلى زحزحة تصورات الكولون المبثوثة في نصوصه السردية، وبغية كسر أنماط التعليب والقولبة، الممارسة بتعسف كبير على الذات الشرقية؛ يناقش سعيد خطيبي ويقتحم إحدى الطابوهات التي شرنقت داخلها المرأة الشرقية، وقزمت أدوارها الفاعلة، لتعود موضوعا جنسيا لا غير؛ « **حيث يتم تصوير النساء الشرقيات بوصفهن منفلتات جنسيا، ومهيئات بحكم الطبيعة والثقافة لمضاجعات ممتعة وشاذة تزداد نشوتها باغتصابهن [...] ومن ثم يتم تحويل الجنسانية إلى ثابت تاريخي يمكن استخدامه لتمييز الشرق والغرب، والشمال والجنوب، والذات والآخر**» (كاظم، 2013، الصفحات 65-66)، وتحقيقا لمعادلة؛ الشرق / الغرب، الشمال / الجنوب، الأنا / الآخر، وما يستتبعها من تصنيفات وتقسيمات مانوية، يكتب (إيتيان دينيه) المستشرق الفرنسي **روايته " خضرة، راقصة أولاد نايل "** الملجمة بلجام الإمبريالية ودواعيها الاستعمارية،التي خاضت في حياة الشابة (خضرة) المنتسبة إلى قبيلة (أولاد نايل) الجزائرية، أين استلمها وتسلمها كموضوع جنسي، وكامرأة شبقية، تمارس البغاء في المواخير والملاهي بمبلغ مالي قل أو كثر، دون أنيكلف نفسه عناء إعطائها فرصة الكلام لتسرد حكايتها بنفسها **(وهل يستطيع التابع أن يتكلم)** بتعبير **(غياتريسبيفاك)« وسط منظومة استعمارية إمبريالية ردعية تعمل على قمع الحريات وطمس الهويات؟ أو بصياغة أخرى: هل توافرت الأجواء الفكرية والثقافية للتابع كي يتكلم؟ أو هل من سبيل إلى استرداد صوته المقهور وإعادة الاعتبار له؟** » (كريم، صفحة 246)،يتيح خطيبي لتابعه / المرأة، فرصة استرداد صوتها المغيّب، عندما حمل على عاتقه مهمة إعادة الاعتبار للنساء النايلات، اللاواتي خاض (إيتيان دينيه) في شرفهن و« **عرى سوأتهن وكتب: " ماذا لم نقُل عن النّائليات [.....] عرب القبائل الأخرى يُحابون سادة أولاد نايل، طمعا في بعض بناتهن اللواتي يُمارسن البغاء** » (خطيبي، 2016، صفحة 46)،

ولفكفكة هذا المتن الروائي، الذي لا تستقيم قراءته إلا بربطه بتاريخانيته وسياقاته الثقافيةالكولونيالية،يعزم (جوزيف رينشار) بتوجه مناقض للأول،كتابة رواية يناقض بها طروحات (إيتيان دينيه) التي ضمنها روايته السالفة، وإذا ما استثنينا عنوانها الإيكزوتيكي**" خضرة تهز ردفيها وتلوح لعشاقها "** (خطيبي، 2016، صفحة 46)، والذي أوقعه مرة أخرى في شراك الاستشراق، والأبنية الكولونيالية؛ فإنه عبر تقصيه لواقعة (خضرة) قد استنطق الجانب المغيب، والمسكوت عنه في سردية (خضرة)، وكل نسوة أولاد نايل، اللواتي « **اختصرهن [دينيه] في قبيلة من الراقصات، مشذوذات البطون، متدليات المؤخرة، يستيقظن صباحا للتسول في حارات الأوروبيين، وفي المساء يرقصن في بارات أمام بعض الجنود الفرنسيين البائسين، في مقابل بعض الفرنكات** » (خطيبي، 2016، صفحة 47)، ولقلقة مثل هذه الأفاويق السردية؛ راح جوزيف ينبش تاريخ النايليات، الذي كشف له عن خصالهن ومناقبهن الذي جهله أو تجاهله إيتيان، الذي « **لم يسمع شيئا عن قصة لالة تركيّة النائليّة، تلك الشابة الثلاثينية، التي أنجبت ستة ذكور، ووهبتهم كلهم، عن طيب خاطر، لأزواج فرنسيين أصابهم العقم، وبقيت هي تربّي بناتها الثلاث، ولم يسمع عن قصة خالتي ربيحة، التي كانت تركب ظهر بغلها، كل يوم، لتجلب الماء، على بعد ثلاثين كيلومترا، لمدة عام كامل، كي تحمي أبناء الحارة، التي كانت تسكن فيها، من حمّى التيفوئيد.** » (خطيبي، 2016، الصفحات 47-48)، فالمرأة النايلية حسب ما كشفت عنه الحقائق التاريخية التي سردها جوزيف، كانت رمز التضحية والشجاعة والإقدام، والتحلي بالقيم الإنسانية العالية، ولم تكن بائعةهوى،ترقص في المواخير بغنج، إلا في مخيال الآخر ، الذي أرادها كذلك خدمة لمرامٍ سلطوية خالصة، ليمحي تحت سرديته التي تعتمل فيها إرادة القوة، تاريخها المشرق، ولتقتصر تلك السرديات المنحازة على تتبع ومشاهدة « **نهود النايليات المتكوّرة أفضل من تكوّر نهود الباريسيات، وأفخاذهن العريضة أكثر من أفخاذ الألمانيات** » (خطيبي، 2016، صفحة 48)،كما يضيف

جوزيف، الذي تقصى في سبيله إلى تقويض المفتريات الكولونيالية، حقيقة قصة (خضرة النايلية)، من الشيخ (**موسى القط**) (خطيبي، 2016، الصفحات 48-49-50-51)،لتحضر (خضرة) في مخيال جوزيف، أين توضع قصتها في مسارها الصحيح، بعيدا عن أباطيل القول،وردا على استيهامات مواطنه إيتيانالكولونيالية؛ ك « **شابة ممتلئة أملا، طويلة القدّ، وبيضاء البشرة، تشبه إيزابيل إيبرهارت في غنجها المحتشم.. لقد حرف إيتيان دينيه حكايتها، نزع منها صفاتها الإنسانية وجعل منها عاهرة وفقط** » (خطيبي، 2016، صفحة 51).

4.خاتمة:

تناسل عن الخطاب الكولونيالي، الاستشراقي منه والسردي؛ شرق مشرقن، أبعد ما يكون فيه عن ماهية الشرق الحقيقي، الذي حول إلى موضوع معرفي تتناوب عليه التخصصات العلمية في المخابر الغربية، التي وافقت الرؤى السلطوية في تطلعاتها نحو الهيمنة على مقدرات أغيارها، وجعلهم مجرد توابع يسبحون بحمدها، وفي سبيلها إلى تحقيق ذلك، كانت صناعة هوية للشرق متاخمة لنوازع السيطرة والتفرد، عبر إواليات التمثيل، والأحرى عبر ممارسة عنف واغتصاب التمثيل، المحاذية لروح الإقصاء والاختزال، أقرب الطرق التي سلكها الغرب الإمبريالي صوب تنصيب نفسه إمبراطورا للعالم، قبل أن يتشكل لدى مثقفي شعوب العالم الثالث وعي رافض لتلك الممارسات والانتهاكات الخطابية التي اقترفها السيد بحقهم، أين تبلور خطاب سردي مضاد للأول ومفككك له.

وذلك هو الشأن الذي خاضت فيه رواية " **أربعون عاما في انتظار إيزابيل** " لمؤلفها (**سعيد خطيبي**)، الذي استشكل في سرديته تلك موضوعة الهوية والتمثيل الكولونيالي، الذي صور مدينة (بوسعادة) الجزائرية كصحراء فارغة، يسودها الصمت والسكون، وجسدها كماخور كبير للممارسة الجنس والعربدة، في إشارة إلى براديغم الشرق الصامت والكسول، والشهواني والجنسي، ليفعل (**سعيد خطيبي**) ماكينة السرد المضاد/ الرد بالكتابة/ المقاومة الثقافية، ليكشف عن بطلان الادعاءات الاستشراقية وزيفها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إدريس الخضراوي، الرواية العربية وأسئلة ما بعد الإستعمار، ط1، دار رؤية، القاهرة، 2012.
2. إدريس الخضراوي، السرد موضوعا للدراسات الثقافية.مجلة تبين، ع7، شتاء 2014.
3. إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، تر، كمال أبو ديب، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ـ لبنان، 1991.
4. إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، تر، محمد عناني، ط1، دار رؤية، القاهرة، 2006.
5. إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر، كمال أبو ديب، ط4، دار الآداب، 2014.
6. إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى، تر، ثائر ديب، ط2، دار الآداب، بيروت ـ لبنان، 2007.
7. إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، تر، صبحي حديدي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفارس، بيروت، عمان، 1996.
8. آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر، محمد عبد الغني غنوم، ط1، دار الحوار، 2007.

9. سعيد خطيبي، أربعون عاما في انتظار إيزابيل، ط1، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، 2016.
10. عبد الله إبراهيم، التخييل التاريخي والتمثيل الاستعماري، مجلة يتفكرون، ع3، شتاء 2014.
11. كريس باكر، معجم الدراسات الثقافية، تر، جمال بلقاسم، ط1، دار رؤية، القاهرة، 2018.
12. محمد بوعزة، سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، ط1، منشورات الاختلاف/ ضفاف، الجزائر، بيروت، 2014.
13. ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، تر، علي المقلد، ط 3، مركز الإنماء القومي، بيروت ـ لبنان، 1990.
14. نورة فرج، ارتباكات الهوية، أسئلة الهوية في الاستشراق في الرواية العربية _ الفرنكوفونية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ المغرب، 2007.
15. هاردت مايكل ونيغزي أنطونيو، الإمبراطورية- إمبراطورية العولمة الجديدة، تعريب، فاضل جكتر، ط1، مكتبة العبيكان، 1423/ 2002م.
16. يحيى بن الوليد، الوعي المحلق، إدوارد سعيد وحال العرب، دط، الهيئة العربية العامة للكتاب، القاهرة، 2010.
17. نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013.
18. ياسين كريم، الاستشراق وجماعة دراسات التابع، ضمن الكتاب الجماعي، الاستشراق والاستعمار والامبريالية، دراسات في ما بعد الكولونيالية. إشراف، بشير ربوح، وخير الدين دعيش، ط1، دار رؤية، القاهرة، 2018.